جون جاك روسو (1712_ 1778)

1_ حياته:

ولد جون جاك روسو في بلدة الكالفينية المستقلة في جنيف عام 1712 والده إسحاق جون جاك روسو

صانع الساعات وسوزان برنارد، توفيت والدة جون جاك رسو بعد تسعة أيام من الولادة، وتولى والده تربيته وتعليمة منذ الصغر، حتى سن العاشرة كان أبوه يتمتع بحق المواطنة في جنيف والتعليم الذي تلقاه جون جاك روسو فيه غرس للوطنية الجمهورية مع قراءة الكتاب الكلاسيكيين، بعد تم نفي والده يقال وضع جون جاك روسو في رعاية قس بالقرب من مدينة بوسي ترك فيما بعد جون جاك روسو هذه المدينة في السادسة عشرة من عمره وتأثر بامرأة كاثوليكية تدعى فرانسواز لويز دي لاتور ساعدته في السفر إلى تورين ومن هناك إلى الكاثوليكية الرومانية في عام 1728 قضى روسو هذه الفترة كخادم عند هذه الأسرة النبيلة في تورين، هناك تدرب روسو لكي يصبح قسيسا، قبل الشروع في مجال المدرس والموسيقي عام 1731 يقال بقي مع السيدة دي وارنز هناك كانت علاقته معها علاقة حب موطدة إلى غاية ثلاثينيات القرن الثامن عشر انتقل إلى ليون، 1740 ليصبح مدرسا هذه المهنة قربته من فلاسفة مثل كوندياك، دالمبرت، اتصل برموز الحركة التنويرية في فرنسا عام 1742 سافر إلى باريس ابتكر النظام العددي للتدوين الموسيقي عرضة على أكاديمية العلوم في فرنسا، رفضته تلك الأكاديمية التقى بالفيلسوف دينيس ديدرو وبعد القاء بدأ روسو في كتابة بعض المساهمات حول دالمبرت وديدرو.

تحول جون جاك روسو فيما بعد إلى الكاثوليكية جعله ذلك غير مؤهل للمواطنة في جنيف في عام 1754 استعاد جنسيته بالعودة إلى المذهب الكالفيني، بعد ذلك نشر أطروحة حول أصل اللامساواة كرد على المسابقة المقالية التي تمت في ديجون حول الفنون والعلوم ورسب فيها، ولم يفز بالجائزة للمرة الثانية وكانت الأطروحة الثانية التي قدمها حول التنمية البشرية الاجتماعية وعلم النفس الأخلاقي وفي هذه الأطروحة بدأت المسافة بين روسو والفلاسفة التنويريين الفرنسيين أكثر وضوحا هنا ترك باريس وبعد ذلك اكمل روايته حول "جولي" ورواية "إميل" أو مقالة في التعليم ، ثم المؤلف الذي عنوانه العقد الاجتماعي.

_ رواية جولي عبارة مثلث حب بين جولي واستاذها القديس بريوكس وزوجها المار خرج العمل على شكل رسائل وهو أيضا مصدر مهم من خلاله اتضحت فلسفة جون جاك روسو

_ رواية إميل تبين المشرع في العقد الاجتماعي ظهر كل من العملين في عام 1762 هذا ما جعل روسو يمتلك شهرة عالمية.

وقيل كان مؤلف إميل مدانا في فرنسا ورواية إميل والعقد الاجتماعي مدانين أيضا حتى في جنيف بدعوى الهرطقة الدينية تخلى روسو هنا عن الجنسية الجنيفية في مايو 1763 هاربا من الاعتقال باحثا عن اللجوء في سويسرا وفي سنة 1766 سافر إلى إنجلترا بدعوى من ديفيد هيوم كان هناك أيضا ليس مستقرا وكان يعتقد أن هيوم يكيد له مكيدة ما بقي أربعة أشهر هناك كان قد شرع في مؤلفه الاعترافات هي عبارة عن نزعة حول أدلة الارتياب والشك، عاد روسو على فرنسا 1767 اكمل ما تبقى من حياته أكمل مؤلفة الاعترافات وكتاب الحوارات ، تأملات حول حكومة بولندا، توفي عام 1778 في باريس.

ومن بين مؤلفاته نجد ما يلي:

_ خطاب حول الآداب والفنون 1750

_ خطاب حول أصل التفاوت أو اللامساواة بين البشر 1755

_ رسالة إلى دالمبرت

_ عن العروض المسرحية 1758

_ خطاب حول أصل اللغات 1761

_ إميل أو حول التربية 1762

_ العقد الاجتماعي أو مبدأ الحق السياسي 1762

2_ تاريخ المجتمع وعلم النفس الأخلاقي:

يؤكد روسو أن البشر بطبعهم صالحون ولكن المجتمع هو الذي يفسدهم، لكن مهما كان البشر طيبون بطبيعتهم فإن هذا ليس هو المعنى الأخلاقي، يزعم روسو أن لكل مخلوق دافعا غريزيا نحو الحفاظ على الذات وهذا الدافع يمتلكه كل البشر يطلق عليه حب الذات، هذا يعبر عن الاحتياجات البيولوجية، والبشر مثل الكائنات الأخرى في عملية الخلق أي من تصميم خالق خير، فهم مجهزون منذ البداية بالوسائل اللازمة لتلبية حاجتهم الطبيعية، يقترح روسو دافع آخر للحفاظ على الذات هو التعاطف، هذا يؤدي إلى الاهتمام بالآخرين والتخفيف من معاناتهم، والتعاطف هو بمثابة محرك حب الذات وفي كتابه إميل يعد تطورا لحب الذات.

في مؤلفه أصل التفاوت بين الناس أو اللامساواة، يؤكد أن الإنسانية مراحل بعدة مراحل في تطورها كانت في الحالة الأكثر بدائية أو ما يعرف بمرحلة المجتمع المعقد، كان البشر يعيش حياة منعزلة في الحياة الأصلية للجنس البشري، لأنهم لا يحتاجون إلى بعضهم البعض لتوفير احتياجاتهم المادية هي اجتماعات مصادفة بين البشر البدائيين، كانت مناسبات للتزاوج والتكاثر، ورعاية الأطفال كانت ضئيلة حرية هذا البشر في هذه المرحلة هي فقط عدم الخضوع للغريزة وحدها ثانيا الكمال عندهم هو القدرة على التعلم وتلبية الاحتياجات الطبيعية، هذا عالم اجتماعي مليء بالرياء، التبعية القمع السيطرة.

بعد ذلك يكون انقسام في الدافع الطبيعي تكون المنافسة بين البشر لجذب شركاء جنسيين يقودونهم على التفكير في جاذبية الآخرين، وحب الذات يجعل المصلحة المركزية لكل انسان هي الحاجة إلى الاعتراف من قبل الآخرين على أنها قيمة ويجل التعامل بالاحترام والحب حب الذات في خطابات روسو كثير ما يؤدي إلى الشرور.

حب النفس وحب الذات والتعاطف ليس مكملا كاملا للعواطف في اعتقاد روسو، بمجرد أن يحقق الناس وعيهم بأنفسهم ككائنات اجتماعية، تصبح الأخلاق ممكنة أيضا وهذا يتم طبعا بقوة الضمير، والأخلاق الحقيقية تتمثل في تطبيق العقل على الشؤون والسلوكيات البشرية، وهذا يتطلب القوة العقلية التي هي مصدر الدافع الأخلاقي الحقيقي

والضمير العقلاني يدفعنا إل العدالة والأخلاق بطريقة شبه جمالية وهذا ما كان غائبا في المجتمعات السابقة وحل محل ذلك التعاطف وحب النفس السام كما يطلق عليه روسو.

3_ الفلسفة السياسية:

أ_ الحياة الاجتماعية الأولى:

في مقاله الأول يزعم أن الفنون والعلوم تكمل ظاهر الإنسان وليس باطنه بل وكلما تقدمت أمعنت في إفساده وتسود فيه الرذيلة، ويقدم لنا روسو مثال عن بعض الشعوب مصر، أثينا، بيزنطة بلاد الصين، غاصت كثيرا في الرذيلة عندما حال وساد فيها العلوم والفنون، بينما الشعوب التي كانت بعيدة عن هذه العلوم والفنون كانت شعوب فاضلة مثل الفرس الأقدمين، الاسبرطيين، الجرمان، السويسريين، هذه العلوم تولد الرذيلة وتطيل الفراغ، وتدفع إلى الترف والفساد، لدينا فقط علماء وفنانين ولم يبقى لدينا مواطنين وإن كانوا فهم يسكنون الريف محتقرون، نتج عن ذلك تفوت وتشاؤم بين الناس، وكان أصل الإنسان كان يعيش حياة الغاب وقانون الغاب، وصل به الحد أن كان لا يعرف حتى أهله ونسبه، لا لغة له ولا صناعة ولا فضيلة، ولم يكن مع أفراد أنواعه أية علاقة، يمكن أن تصبح فيما بعد علاقة خلقية، فقط كان إنسان يرضي حاجاته الطبيعية، وكانت له غرائز مثل غرائز الكائنات الأخرى، بل حتى الانسان الذي كان يتأمل أنذاك هو كما يصفه بحيوان فاسد، بل الحرية أنذاك بالنسبة للإنسان تتمثل في انقياده للكائنات الأخرى ومحاكات كل ما يوجد في الطبيعة وكأن الحياة هي بدائية بامتياز، لقد أخطأ هو بز عندما قال الطبيعة تتميز بالطمع والكبرياء، بل وفي الاجتماع توجد هذه الحالات لكن كيف خرج الانسان من هذه الحالة الأولى؟

خرج منها بالاتفاق أي أنه كان يدرك أنه هناك أسباب طبيعية، فرضت عليه واعترضته كان عليه أن يتعاون مع أخيه الانسان في حالة تعرضه للجوع والربد كأن يقوما مثلا بالصيد معا حتى يحصل على قوت عيشه تربية الحيوانات القطف معا في الطبيعة، الفيضانات، الزلازل ربما اضطرت بهم للتعاون جماعيا هنا اخترعت اللغة وتغير السلوك في المعاملة وبرز الصراع ونشبت حتى خصومات عنيفة، هنا دخل الانسان في حالة أخرى هي حالة التوحش، ولم تصل بعد الحالة المدنية، هي حالة خالية من القوانين، والأحكام والسلوكيات الأخلاقية، ولا يوجد هناك ردع بل ما يوجد هو الانتقام، لكن عند تقسيم الأراضي ومهام الصناعة الأقوياء استحوذوا عليها بقي الضعفاء همهم هو الخضوع للأقوياء وان لم يكن الخضوع يكون هناك الصراع يتفاقم ويزداد التفاوت، فيسن الأقوياء القوانين والضعفاء يتبعونها ويخضعون لها لضعفهم وربما يذعنون لها حتى يدافعون عن شرهم هناك تكون الحالة المدنية المنظمة عن طريق القوانين، وتتضح الملكية بشكل خاص، وهكذا يقول روسو الانسان يصبح شريرا بالاجتماع. ومن ثم هذا النوع من الاجتماع البشري هو اجتماع فاسد لكن ما السبيل إلى إصلاحه؟

ب_ اصلاح المجتمع (العقد الاجتماعي):

يؤكد روسو أن الاجتماع حاجة ضرورية، ولا يمكن البعد عنه لأن ذلك يعتبر عودة إلى الحياة الطبيعية الأولى، لكن الحقيقة هي لا بد من اصلاح مفاسد هذا الاجتماع وذلك ببناء حياة مدنية بحكومة مدنية فيها مواطنين صالحين بالتربية والأخلاق، يكون هناك اتحاد بقوة المجتمع لكن ليس معناه كل شخص يكون خاضع لشخص آخر وإنما كل له حريته الخاصة به وتتساوى هناك الحقوق أي الجميع يتساوى في الحقوق والواجبات، وهذه هي المسألة التي يناقشها بقوة كتابه العقد الاجتماعي، يؤكد أن الجماعة تتخلص من تفككها عندما تؤلف شعبا واحدا ويحل القانون محل إرادتهم هكذا يمكن جر الجماعة من حالة الخصومات والتفاوت والنزاعات على الحالة النظام والمدنية بحيث كل فرد يتجاوز

أنانيته ويتنازل من حقوقه للجماعة وهذا هو مبدأ العقد الاجتماعي، بفضله يصبح الكل متساوون في ظل القانون والقانون حسب روسو هو يمثل إرادة الكل ويخدم المصلحة العامة.

إن الشعب حسب هذا المفهوم لا يفكر إلا في إرادة ومصلحة ومنفعة العامة، هكذا تكون الإرادة الكلية دائما مستقيمة، المجتمع القائم على العقد يؤلف إرادة كلية قوية بل حتى شخصا يكون كليا وقويا، يكون مجتمع يسود فيه الحق والأخلاق، بعد أن كان كل فرد يتبع إرادته الخاصة، ولهذا فالمجتمع والجماعة والعقد هذا بمثابة دين مدني يربط الفرد بالحياة المدنية وحياته لا تكن مستقلة عنها، يتعين على الدولة أن تنفصل عن الدين المسيحي لأنه يفصل بين الروحي والسياسي، بل هو فصل للوحدة الاجتماعية، وما من دولة قامت الا وكان الدين أساسها، والدين يقتصر على غرس العقائد الضرورية للعيش في الحياة تفرض كقوانين لكنها ليست صالحة للحياة الاجتماعية والمدنية الحقيقية، هذه العقائد هي عقائد القانون الطبيعي، وجود اله، العناية الإلهية، الثواب، العقاب.

ج_ الإرادة العامة:

يؤكد جون جاك روسو أن لكي تكون الإرادة عامة يجب أن تأتي من الجميع، وأن تنطبق على الجميع، هذا الفكر له جوانب شكلية وجوهرية، إن القانون حسب روسو يجب أن يكون عاما في التطبيق، أي ينطبق على الجميع ، وعلى كل فرد داخل الدولة، يعتقد روسو أن هذا الشرط سيقود المواطنين على الرغم من استرشادهم بالنظر فيما هو في مصلحتهم الخاصة إلى تفضيل القوانين التي تضمن المصلحة المشتركة بشكل حيادي، والتي ليست مرهقة وتدخلية، ولكي يكون هذا صحيحا يجب أن يكون وضع المواطنين مشابها إلى حد كبير لبعضهم البعض، في دولة يتمتع فيها المواطنون بتنوع كبير في أنماط الحياة والمهن والأعمال، أو حيث يوجد قدر كبير من التنوع الثقافي، أو حيث توجد درجة عالية من عدم المساواة الاقتصادية، لن يكون الأمر عموما هو أن تأثير القوانين سوف تكون هي نفسها للجميع في مثل هذه الحالات لن يكون صحيحا في كثير من الأحيان أن المواطن يمكن أن يشغل وجهة نظر الإرادة العامة فقط من خلال تخيل تأثير القوانين العامة والعالمية على حالته أو قضيته. ويقول روسو: " المواطنين الذين أجبروا على أن يكونوا أحرارا عندما يجبرون على طاعة الإرادة العامة ويقول: "يولد الانسان حرا لكنه مقيد في كل مكان بسلاسل". هذا يدل على أن الحرية والسلطة يتصالحان في الدولة التي يتصورها جون جاك روسو.

تنتج السلطة السياسية عن عقد شراكة مؤسسة على مفهوم الإرادة العامة ويتم الانتقال من الاستقلال الطبيعي إلى الحرية السياسية عبر الارتهان الكلي لكل شريك مع جميع حقوقه للجماعة كلها ببساطة أعطي سيادتي للجماعة ولكني جزء من هذه الجماعة فاحفظ إذا حريتي وسيادتي التي هي غير قابلة للتجزئة، والإرادة العامة ليست محصول جمع كل الإرادات الخاصة ولكن هي التعبير الكامل عن سيادة كل فرد وعن سيادة الشعب، وتتطلب منظومة كهذه انتخابا اجتماعيا كما يجب أن يقتصر دور المشروع عن خدمة الإرادة العامة وهنا يتجه تفكيرنا إلى جمهورية جنيف ولا يعبش مشروع سياسي كهذا إلا في اطار جماعة قليلة العدد.

لكن بصرف النظر عن المشاكل التي يطرحها هذا المشروع، فان روحه لعبت دورا مهما في التحاليل السياسية التي تمت بعد روسو وغالبا انطلاقا منه، وفي مجال التربية مقاربة كتابه "إميل" هي التعبير عن الرؤى السياسية لروسو عند ولادته الطفل انسان جيد لا يجب افساده ينبغي أن ينمو الطفل ويجرب بنفسه الطبيعة والعالم، ويقرأ قليلا لاحقا، بعد ذلك فقط يجدر التكلم معه عن الأخلاق والدين.

في فرنسا جهل معاصرو روسو قوة فكره وهذا لم يمنع تأثيره على قادة الثورة أما كانط فقد اعتبره منذ البداية رجلا عظيما، كما قدره أكبر تقدير فيخته، شلنج، هيغل، ماركس، رغم كل ما قاله فولتير فإن جون جاك روسو قد أرسى قواعد التفكير التربوي الحديث وبنى فلسفة سياسية نافذة وابتكر أحلام اليقظة الأولى.

المراجع المعتمدة:

_ جون جاك روسو، خطاب حول أصل التفاوت بين البشر

_ جون جاك روسو، العقد الاجتماعي أو مبدأ الحق السياسي

_ جورج سعد، معجم الفلاسفة الميسر، دار الحداثة للطباعة والنشر، 1993

_ يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، مصر، 1976.